ترجمة وتحليل :

الغـــــروب ! . . (*)

لشاعر الحب والجمال لامرتين

بقلم الأستاذ صبحي إبراهيم الصـالح

استلقى الشـاعر على الرمال والريح بليل ، فما كان أمامه إلا البحر المضطرب والشطُّ الجميل ، ولا كان فوقه إلا السماء تسمى فيها إلى المغرب شمس الأصيل . . وراح يتأمل هذا البحر الهائج المضطرب تصطخب أمواجه وتتلاطم ، وتعلو رءوسها وتهبط ، وترغى أشداقها وتزبد ، فخيل إليه أنه أمام قدر تغلى مياهها فتعلو أزبادها ، وأن من تحت البحر ناراً تسجره ، كما يكون تحت القدر مرجل تسعره ؛ فاستشعر حلاوة هـذا التأمل واستغرق فيه ، فما أفاق على نفسه إلا وقد هدأ البحر بعد اضطرابه ، وسكن موجـه بعد اصطخابه ، فقد خبت ناره فما تسجره ، كما يخبو مرجل القدر فلا يسعره ؛ ونهض الشاعر يريد العودة إلى منزله فما راعه إلا منظر جديد يتقلب تحت بصره . فلقد هب البحر هبة واحدة ، ثم سحب من الشاطىء موجه الدافق التلاحق ، كما تسحب الغانيـة عن الأرض ذيول ردائها الفاتن ، وأقبل والموج في استرخاء ، على سرير سابح في الفضاء ، ينشدان طيب المنام ، بعد يوم شديد الخصام !

وكان حقاً للامرتين أن يظل مستلقياً على الرمال ليشهد هذا المنظر الجذاب ، فيسجله بهذه الأبيات :

١ — « هـدأ البحـــر كقـدر علا زَبَدُه ،
ثم ذهب جُفاء لـا خبـــا موقده . . .
وهبَّ يسحب من الشاطىء موجه المتدافع ،
كأنه يريد المنـــام في سريره الواسع ! »

وفي الأفق البعيد ، فوق هذا البحر الذي أخذته سِنة من النوم ، وبين الغمام المخيم على البحر ، كانت « ذكاء » تمشي على استحياء ، وتهوي في خَفَر من سحاب إلى سحاب ، وتمُدّ في تردد ظلها على الأمواج ، فكان ظلا مرتعشاً مرتاباً ، يطفو على وجه البحر تارة ويختفي بين طياته أخرى .. ثم اشتد خجلها من تردد ظلها وارتيابه ، فاحمر وجهها حتى أضحى كوجه غانية تخضب بالدماء ؛ وأبت أن تشمت الطبيعة بما عراها من اضطراب ، فوارت في حجاب الأفق شـطراً من وجهها القاني الذي ظل شطره الآخر براقاً يخطف الأبصار ، وجلا يتأهب للتوارى عن الأنظار ، فكان كسفينة جميلة اشتدت بها الريح في يوم عاصف ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، ثم غرقت في الأفق البعيد ؛ فانطوى منها شطر في أعماق الماء ، وبدا شطرها الآخر على وجهه تتدلع منه ألسنة اللهيب في حمرة الدماء !

٢ — « والشمس التي كانت تهوى من سحاب إلى سحاب ،
مدّت على الأمـــواج ظلَّهـــا المرتاب . . .
ثم وارت شـــطراً دامياً من وجهها البراق ،
كسفينة غرقت في الأفق بعـــد احتراق ! »

وكأنما أسفت السماء لغياب الشمس ، فشحب منها الجانب المواجه لما احتجب من ضيائها ، وظهرت عليها أمارات الحزن والاضطراب ؛ على حين غارت الصبا من الشمس فظلت تواريها في حجاب الأفق رشاقة ودلالا ، فاستترت مثلها يرقمها الشفاق ، وأنشـأت شفتاها الرقيقتان تنفحان من خلاله نفحات ألطفَ من حفيف الورق ، وأنعم من لمس الحرير ؛ بينما كانت الظلال تدنو من أمها الشمس وتقترب ، وتجتمع بأمرها وتتحد ، ثم تمدو بين يديها وتستبق ، وتمحو تحت ألوانها الداكنة السوداء كلَّ ما يدب على الأرض أو يجرى ، وما يسكن في مسـاربها أو يسرى ، وكل ما يطفو على وجه الماء أو يسبح ، وما ينطوى في أعماقه أو يعوم .

٣ — « وشحب شطر السماء . أما الهواء اللطيف
فتوارى في الحجـاب ناعماً كالخفيف ...
وعَدَتِ الظلال فمحتْ في ألوانها الداكنة ؛
كلَّ سارب في الأرض أو سابح في الماء ! »

(*) في مقال (أمنية الشاعر) بالعدد ٧٧٤ من الرسالة وعدت بترجمة بعض قصائد « لامرتين » وتحليلها كلما وجدت فراغاً ، وآنست رغبة . وإني أقدم — وفاء بوعدي — هذه القصيدة الثالثة التي تجدها في كتاب (أنغام شعرية ودينية .
Hoarmonies Poétiques et religieuses

وليت شعري ، ماذا يصنع الشاعر أمام هذه المناظر ؟

بحر يهدأ بعد اضطراب ، وينام بعد اصطخاب . وشمس تمر بين السحاب ، ثم تتوارى في الحجاب . . . وسماء تشحب وتصفرّ ، وريح تسكن وتقرّ ... وظلال تمتد وتستبق ، وعوالم تتمحى وتختنق !! ..

أجل ... ماذا يصنع الشاعر أمام هذه المناظر ؟

لقد هدأت بعد ذهاب النهار كلُّ ضوضاء ، وسكنت كل حركة ، وسكت كل صوت إلا صوت باك من فؤاد حزين ، أو متضرع بقلب سليم ، أو شاك ظلم الأقدار ، أو ناشد حقائق الأسرار ! .

ألا وإن للشاعر روحاً تشحب إذا شحبت السماء ، وفؤاداً يبكي إذا تذكر البكاء ، ونفساً تشكو بألم الآخرين قبل شكواها ، وعقلا ينشد الحقيقة ولو من صداها . وهذا ما صنعه لامرتين ووصفه في هذه الأبيات :

٤ — « وفي أعماق روحي التي أمست بدورها شاحبة ،
قرت بعد ذهاب النهار كل ضجة صاخبة .
وساور نفسي شيء كما ساور الخليقة ؛
يبكي ويدعو ويشكو وينشد الحقيقة ! »

ولو كنت تجلس مجلس الشاعر لرأيت في ناحية المغرب — وسط قرص الشمس الهلالي الأحمر — باباً واسعاً مفتوحاً على مصراعيه ، تسطع منه الأنوار تتلوها الأنوار ، وهاجة كالذهب ، دفّاقة كالموج ، فتصطبغ السحابة من فوقها بلون أرجواني جذاب ، فتحسب هذه السحابة خيمة ضُربتْ أوتادها على ناز يضطرم أوراها ؛ ويشتد سميرها ، لتغطيها وتمنع الريح من إطفائها ؛ وأن ليس هذا اللون الأرجواني إلا صبغة اللهيب ، ارتسمت على الخيمة فلاحت من خلالها ، في روعة مدهشة وجلال عجيب !

٥ — « وفي ناحية المغرب باب واسع مفتوح ؛
ترك الأنوار كأمواج الذهب تلوح . . .
والسحابة الأرجوانية شابهت خيمة ،
تغطى — ولا تطفىء — نيراناً مضطرمة ! »

ومثل هذا المنظر الأخاذ جدير أن يجذب إليه الظلال والرياح والأمواج ، فإذا هي تمتد جميعاً صوب هذا القرص الجمري الملتهب ، وتود لو تحول دون غوصه في الأفق ، لأن شعاعه المسجدي هو الذي يمدها بالحياة ، وأنها لتخشى الموت إذا فارقها الشعاع .

٦ — « وبدت الظلال والرياح وأمواج البحر ،
كأنها تمتد صوب هذا القرص من الجمر ،
كما لو كانت الطبيعة وكل ما يمدها بالحياء
يخشى الموت بعد أن فقد ضياءه ! . . . »

***

ومن عجب أن غبار السماء ، أبى إلا أن يطير عن الأرض منتشراً في السماء ، وأن زبد الموج آثر أن يطفو على وجه البحر رغوة بيضاء ؛ فما بقي على الشاطىء إلا الشاعر حائراً أمام هذه المناظر ، يرجع البصر في هذا السكون العميق ، فتنحدر الدموع من عينيه على غير حزن ، وتنهمر على خديه من غير أسى ، فلا يدري ما الذي أبكاه ، ولا يفهم كيف ذرفت عيناه ...

٧ — « وطار عن الأرض عِشَيرُ السماء ،
وطفا الزبد على الموج رغوة بيضاء ؛
فأتبعتها بصري الحائر المنكسر ،
ودعوعي — من غير ما يحزنني — تنهمر ! . »

بلى أيها الشاعر أنت حري أن تعرف ما الذي أبكاك !

أبكاك هذا السكون المفعم بالأسرار ، وروعة الليل بعد ذهاب النهار !

أبكاك شعورك بالوحدة إذ رأيت الأفق البعيد خالياً ليس ليس فيه شيء ، مضروباً عليه الحجاب لا يكشف من دونه سر ، وكان فؤادك الذي عذبه طلب الحقيقة وأضناه طامعاً فيما يحيط بالأفق من أسرار ؛ فلما اختفى من أمامك كل شيء تحركت شجونك ، وأحسست لوعة تحرقك ، فجادلت عيناك بالبكاء ، لتلهمك الصبر والعزاء .

ولكن ... أما يزال فؤادك فارغاً لا تجول فيه الأفكار ، أم أوحت إليك هذه المناظر بفكرة جديدة تناجي بها هذه الطبيعة التي تصلي في محرابها القدسي ؟ ..

كلا ... إنك تفكر ... ولكنك لا تشعر بما يتلجج في

صدرك ، فحاول أن تصف حقيقة شعورك ، لترى صورة من تفكيرك .

٨ — « واختفى كل شيء . فبقى فؤادك المذهب ،
فارغاً خاليـــاً كالأفق المحجّب . . .
ثم تمثلت لى فكرة واحـدة . . .
كأنها هرم فى واحـة راقدة . . . »

وإن هذه الفكرة التى هبطت عليك هبوط الوحى ، ومثلت فى ذهنك الخالى مثول الهرم فى واحة ليس بها أنيس — لفكرة جليلة ما فى ذلك ريب : فلقـد ناجيت بها هـذه الشمس التى ما تنفك تسبح فى فلكها ما تستقر ، وتدور حول العالم ما تعرف السكون ، وتسعد بشروقها قوماً حين تشقى بغروبها آخرين ، فإذا هم يعيشون على غير نور ، أو يعشون فى ضوء القمر المستمد من ضيائها ، وهم يرتقبون طلعتها سافرة لا يسترها برقع ، ووجهها براقاً لا يخفيه حجاب .

وناجيت بها السحب المتنقلة ، والأمواج المتدفقة ، والأعاصير المتلاحقة ، إلى أين تسير ، وعم تبحث ، وماذا تروم ؟

وناجيت بها الغبار الذى رأيته يتطاير ، والزبد الذى شهدته يطفو ، والليل الذى راقبته يدخل ، وعينيك اللتين أبصرتا كل شيء ، وروحك التى سبحت فى الوجود ، إلى أين الرحيل ، وأيان السفر ، وفيم الإسراع ؟

فهل سمعت رداً ، وهل تلقيت جواباً ؟ ! ...

٩ — « يا فلكا ما انفك يدور ، والعالم بعده بلا نور !
يا ســـحباً وأمواجاً وأعاصير : نبئينى أين المصير ؟
أيها الغبار والزبد والليـــل ! يا عينى وروحى خبرينى
إلى أين رحيلنا أجمعين ؟ هلا تعلمين ؟ ! »

دعها أيها الشاعر إن كانت تعلم أو لا تعلم ، فحسبك أنك لا تشـك لحظة فى أن كل شيء مردود إلى خلقه ، وأن الشمس ما شحب لونها ثم احمر وجهها ثم غاص شطرها إلا من هيبة ربهـا ؛ وأن الليل ما أقبل ، والنهار ما ارتحل ، والأرواح ما بكت وتضرعت وشكت إلا لأنها تمشى بخطى واسعة نحو بارئها : فهو الذى يقلب الليل والنهار ، وهو الذى مد الظل ، وهو الذى مرج البحر ، وهو الذى سخر الشمس والقمر ، وهو الذى جعل حياة البشر خضماً يضطرب ويهدأ كهذا الخضم الذى تراه ، ليمخر الناس عبابه فيصلوا إلى شاطىء السلامة .

ألا فلتطأطىء الرأس خشوعاً بين يدى ذى الجلال ، فما أنت إلا سابح فى موج كالجبال .

١٠ — « إليك يارب ... فالشمس من بهاء نورك شاحبة ،
والليـــل والنهار والأرواح تحـــوك ذاهبة !
تقلب الكون كما تشـــاء فى حياة شـــاملة ،
كأنهـا خضم يثيب كل شيء فى أمواجه الهائلة ! »

وهنا يقوم الشاعر من مقامه ، ويعود إلى منزله وفى عينيه صورة (الغروب) ، صورة ما رسمتها ريشة فنان كما ارتسمت على صفحة الروح .

صبحى إبراهيم الصالح

محمود الخفيف

مؤلف أحمد عرابى ، وإبراهام لنكولن

يقـــدم

تولســـتوى

قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه

اقرأ فى تفصيل وتبيين : حيـاته وفلسفته فى الدين والاجتماع والسياسة

ثم اقرأ : خلاصات وافية ونقدا مفصلا لقصصه الكبرى والصغرى وفى مقدمتها : « الحرب والسلام » و « أنا كارينينا » و « البعث »

واقرأ : كيف كان شهيد الإنسانية غاندى تلميذاً « لتولستوى » ومنفذاً لمبادئه ؟

أخرجته أخراجا فنيا مطبعة الرسالة

يطلب من دار الرسالة وثمنه ٤٠ قرشاً عدا البريد